

[ ١ ]

### الفطرسية الاسرائيلية : جذورها وابعادها

الحياة - حياة الفرد والمجتمع معا - ما هي الا سلسلة ديناميكية ( او دايكتيكية ان شئت ) للاحوال وردود الفعل عليها . ونجد في هذا الشأن حالة الذلة والعبودية التي عاشها في فجر تاريخهم المدون ، الحالة التي وصفها العبريون انفسهم والايغار من المصريين . ولا بد ان العبريين تحلوا كقبيلة سامية بما تحلى به العرب وجميع البدو من شعور عميق بالكرامة والاعتداد بالنفس . بيد ان العرب استطاعوا ان يحافظوا على كرامتهم بيقاتهم في معقلهم الجزيرة العربية . وعندما خرجوا الى الامصار خرجوا كأمة عظيمة فاتحة مزودة بايمان يزيد من فخرها واعتزازها . على عكس ذلك جاءت قصة العبريين . فقد نزحوا من معاتلم الطبيعية في البادية وخرجوا الى مصر دون ان تكون بيدهم قوة العرب او ايمانهم . وبدلا من اخضاع مصر لهم خضعوا هم لحكمها . وبدأت قصة مذلهم . الرأي السائد هنا ان مأساتهم في مصر قد حلت لان الفراغنة وجدوهم اجانب فاستبدوهم . ولكننا قد نكون اقرب الى الحقيقة اذا قلنا ان العبريين كبدو من الجزيرة لم يستطيعوا اهدار كرامتهم وغريبتهم ومشاركة ابناء النيل في عبوديتهم لفرعون والخضوع لحكمه المركزي المطلق .

ما الذي جعلهم يتكون مواطنهم الاصلي مسألة ظلت غامضة وكذلك ظلت مسألة مواطنهم الاصلي الحقيقي . غير ان الآراء تجتمع على ان تخوم بادية الشام كانت المسرح الذي ظهروا عليه اولا . وفي مثل هذا الحزام شبه الصحراوي بين الحضارة والبداءة تتجمع عناصر المجتمع المنبوذ - او ما يسميه علماء الاجتماع بالبارية - المجتمع الذي نظر اليه أصحاب المن نظرة الخوف والاستهجان كجزء من البداءة البدائية ونظر اليه البدو نظرة

لقد اعتدنا في السنوات الاخيرة على سماع عبارة « فطرسية اسرائيل » من اصدقائها واعدائها على السواء ، من اعدائها كصفة من صفات اسرائيل الشريرة ، ومن اصدقائها كخطر يهددها مرارا . وتجد الفئة الثانية مصداقا لخاوتها من الضربة الاخيرة التي تلقتها في اكتوبر الماضي . فقد ذهب الخبراء الى ان فطرسية تل ابيب وثقتها المفطرة بنفسها كانت من أسباب نجاح العرب . والواقع ان اللواء احمد اسماعيل سبق ان صرح بأن التخطيط العربي اخذ بنظر الاعتبار الفطرسية الاسرائيلية كأحد العناصر الرئيسية في جانب العرب .

لقد أشرنا في العنوان الى جذورها لان هذه الظاهرة النفسية ليست مجرد نتيجة للانتصارات الصهيونية المتوالية خلال ربع القرن الماضي كما يبدو للبعض . ولا هي مجرد امتداد للاستعلاء العنصري الاوروبي كما رأى نزيه قورة في بحثه القيم ( شؤون فلسطينية ، يناير ١٩٧٤ ) عن نفس الموضوع . لقد ذهب ذلك البحث الى ان الفطرسية الصهيونية هي اولا جزء من الاستعمارية الاوروبية وثانيا وثانويا امتداد او استثمار لفكرة الشعب المختار . في رأينا ان العكس هو الصحيح تماما . والدليل على ذلك هو أن الاوروبيين انفسهم طالما عبروا عن تدهمهم مما أسسوه بالفطرسية اليهودية حتى قبل ان تظهر الحركة الصهيونية الى الوجود ، كما سنأتي الى ذكره ادناه . هناك جذور طويلة لهذه الفطرسية تمتد ما امتدت الثقافة العبرية في التاريخ ، وفكرة الشعب المختار هي العبارة التي توجز هذا الموقف جوهرها وتالبا . ولكن لهذه العبارة على قدمها جذورها الابدع منها .